من صفحات البطولة

سلاميش

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

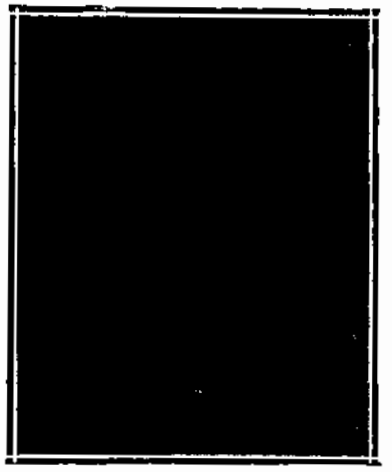

قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التى ثار لهيبها فى الشام نحو قرنين طويلين ؛ وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة انطاكية إحدى المدن التى كانت لا تزال باقية فى يد المسيحيين . وكانت جيوش مصر تحارب ببسالتها المعروفة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوى بفرسه كالصاعقة وهو يصيح صيحة الحرب فيوقع بعدوه الفشل فيتفرق ويتبدد ، ثم يشيط فى رماحه وسيوفه .

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويبهر الأنظار ، فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة ، فالفارس فى ملبسه الحربى عليه العلامة الصفراء تبرق فى شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر اليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافى الحديد والفولاذ ؛ وكانت ملابسه من تحت تلك الغواشى لا تظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذيال من صافى الحرير والقصب ؛ وكان الفرس يختال تحت راكبه كأنما هو يزهى بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجد مغوار

ودافع المحصورون فى أنطاكية دفاع الأبطال ، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم ، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم . وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس . ودخلت المدينة فى أبهة النصر واختيال القوة . وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم يلجون أكبر معقل بقى للنصارى فى الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله .

كان قائد الجند شابا فى مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد فى غير لباس الحرب لظنه أحد أبناء الملوك المنعمين . وجه مشرق إشراق الزهرة اليانعة ، وقوام ممشوق كأنه رمح ردينى ، وعينه تلمع كأنها ريا بفرند سيف دمشق . ولكنه كان فى عدة الحرب عليه اللأمة والدروع وفى يده الرمح وفى منطقته السيف ، ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبسا جاداً والجنود من ورائه لا يلتفت أحد منهم إلى يمين أو إلى يسار ، ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الأمر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين . وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قامتهم استقامة ، فان هم بعضهم ببسمة وقفت البسمة على شفتيه حذر أن يطلع عليها اذا هو التفت .

وكان يوم دخول انطاكية يوماً مشهوداً ، فكان نساء المدينة وصبيانها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم ؛ وكان رجالها وشبانها بين مقيد فى الأصفاد ، وجريح فى مثاوى العلاج ، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق . وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من فى يده الحكم فى مصائرهم ، وخمدت الأنفاس ، وهدأت الأصوات ، وأومأ القائد للجيش بالوقوف حول الميدان ، فوقف الجند ينظرون إلى أكوام الغنائم التى سيقتسمها السلطان الأعظم بينهم وهى من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبايا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينظرون إلى قيودهم حانقين ، أو يكون ويندبون معولين .

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضع خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الاذن للكلام ، فأذن لهم وهو معبس على عادته لا تفارقه تلك النظرة الجامدة التى فى عينيه ، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم ما يقولون . وطلبوا اليه أن يمن عليهم بالفكاك وأن يهبهم نساءهم وذراريهم تقربا إلى الله الذى نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم ، وقالوا له فيما قالوا « حسبك من تقتل من شبابنا وكهولنا ، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا ؛ فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت ، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت ؛ وكفاك من الحرب النصر فلا تضم اليه دموع المساكين ، ولهيب الفراق بين الأبناء والوالدين » غير أن سلاميش بقى على تعبيسه ووجومه ولم يجب إلا باشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه ، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبه .

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار فى الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يجرون شخصا وهو يمانع ويجاهد ، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة ، فوقف وأمر

الجنود بالوقوف ، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ماهناك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جنديين يدفعانها ويترددان فى حملها . ولما اقترب منها رأى شابة نحيلة ممشوقة فارعة ، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة ، وفى عينيها حلاوة قد غشيتها صرامة ، وهى تنظر إلى الجنديين مرفوعة الرأس كأنها تزهى ، جامدة العينين كأنها تتحدى . وقد تمزق ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء ، لايكاد يستر من جسمها إلا مايستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول .

وقد انسدل على كتفيها غطاء من شعرها الفاحم وهو يلمع فى ضوء الشمس الغاربة . فدخلت الرحمة قلبه برغمه ، وتمهدت عبسته ولانت نظرته وأشار إلى جنوده بالكف عنها ، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فأسلمت له وسارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان فى صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته . ثم عاد وقد أطرق قليلا حتى علا صهوة جواده . ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظرته وعبسته . وألقى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم فى شغل من أمر جيشه حتى أوغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فآب إلى سرادقه .

وتذكر الفتاة التى كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكراها ، فأمر غلاما أن يحضرها إليه ، وجلس يستعيد صورتها ويتمثلها وهى تناضل على ضعفها وتتكبر على ذلها ، ولم يتمالك أن ربت الرقة إلى قلبه ، ولم يستطع قهر عبرة ترددت فى عينه . وغاب الغلام قليلا ثم عاد وحيدا فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به ، فقال الغلام بعد التحية « إنها لاترد بكلمة ولا ترفع إلى بصرها » . فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر ، ثم نهض متثاقلا وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألفاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها .

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال : « يحزنني أنهم أساءوا إليك »

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جمرة ، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحقد مرتسم على محياها ، ونار الغضب تضطرم فى عينيها ، وكانت الملابس الرثة التى أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يبدو كالزنبقة المبللة بالندى ، ودفعت يده التى مدها نحوها وقالت وفى صوتها بحة : « ابعد يدك عنى أيها القاتل السفاك . أدر وجهك الكريه عنى فأنت قاتل أبى وأخى ، وأنت سافك دماء قومى ، وأنت المعتدى على وطنى . ابعد عنى وافعل بى ماشئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك » .

وكانت وهى فى ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة ، وكان صدرها يعلو ويهبط فى هياجها ، وشعرها الطويل الاسحم يضطرب بعضه فوق كتفيها وبعضه على صدرها أو جوانب جسمها

ودهش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة فى لفظها ولا رخامة فى صوتها ، ولكنه لم يجب بكلمة ، بل رفع حاجبيه وانثنى راجعا إلى خيمته يسير فى بطء ويثور به شىء يشبه الحزن

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره ، وأتى إليه فجعل يسأله عن المدينة وأهلها ، وعن تلك الفتاة وبيتها ، فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم ، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء أنطاكية ، وأن أباها كان شديد الولع بتثقيفها ، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس ، وكان لها أخ قتل فى أثناء الحصار ، ومات أبوها يوم الفتح ، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة ، وأراد أن يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انفراطه فاتهموه بالجبن ، وصاحوا فى وجهه ، أنه اثر السلامة ، فحملته الحفيظة مع كبر سنه على الركوب فى وجه الجيش الفاتح ، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر

وسمع سلاميش تلك القصة فأفلتت منه زفرة لم يستطع كتمانها ، وبات الليلة والأحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر ، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعا للتفكير فى الفتاة ولا فى همومها ، وكان كلما تذكر كلماتها له نازعته نفسه إلى القسوة عليها ، ثم لايلبث أن يلين ، وتعاوده رحمته . حتى إذا انقضى اليوم وعاد فى المساء إلى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها ، وتقرب إليها وهو يتردد ويترفق ثم وقف إلى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض :

« لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس »

فلم ترفع إليه بصرها ، بل بقيت جالسة ، ورأسها بين كفيها

والتفت إلى خوان بالقرب منها ، فرأى عليه طعاما لم يمس ، فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء : « وهل تريدين أن تموتى جوعا ؟ »

فلم تجب على قوله ، بل حاولت كتم نحيبها .

فقرب منها ، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو يحترس متلطف ، ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة :

« أقول لك اتركنى »

فلم يستطع أن يخالفها ، فأبعد يده عنها ، وتراجع ، ناظرا نحوها ، ثم تنفس نفسا طويلا وخرج وفى قلبه حزن وقلق

وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيبا ، حتى لحظ أصحابه كآبته ، وعجب جنوده لجفائه ونفرته ، فكان لا يأمر إلا متبرما غاضبا ، ولا يسمع إلا متجهما ساهما ، حتى عجب الناس من ذلك الغضب ، فى عقب الانتصار ، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللا بالمجد والتوفيق . وما انتهى من عمله حتى أسرع الى سرادقه ، ووقف هذه

المرة مترددا وجلا ، ودخل فى رفق وخشوع إلى مكان الفتاة ، فأبصرها على ما كانت عليه فى الصباح ، والخوان لا يزال إلى جانبها ، قد تبدل طعامه ، ولا يزال كاملا لم تنل منه شيئا

ونظر إليها مليا ثم قال برفق : « أما تكلمينى ؟ إننى أرجوك أن تنظرى إلى وتنطقى بما يجول فى نفسك ولو كان قاسيا »

ثم مد يده إلى رأسها ومسح عليه متلطفا ـ ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تغضب . وكأن نبرات صوته قد حملت إليها ما فى فؤاده من حزن من أجلها . على أنها بقيت ساكنة ، وهى جالسة فى مكانها كئيبة .

فجلس الى جوارها ساعة يحاول محادثتها وهى لا تجيب الا بدمعة تثور بين حين وحين فى عينيها فتمسحها بمنديل ثم تعود الى وجومها وسكونها ، فقال لها ولسانه ينم عن مقدار عطفه وحزنه :

« إننى لا أريد ايلامك ـ لأننى لا أستطيع أن أراك متألمة ـ ولو كان ذهاب ألمك بابعادك عنى لفعلت . ألك أهل فى عكا أو فى مدينة أخرى من المدن فأرسلك اليهم ؟ ان السلطان لن يرد لى طلبا اذا طلبت منه شيئا »

فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجيا مستعطفا ـ وكان أول ماقالته له أن هزت رأسها نحوه وقالت : « ليس لى أهل ـ قد قتلتهم جميعا » ثم شهقت بالبكاء واسترسلت فى هزة مريرة من الحزن

ولم يملك سلاميش نفسه من أن تجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهدأ من جأشه وقال لها :

« اننى أرحمك فى حزنك ولكنى لا أملك دفعه . فقد كان أهلك أعدائى وكنا معا فى ميدان قتال يسعون فيه الى قتلى كما كنت أسعى إلى قتلهم . وهل لك جعان مصير الا الموت فى ميدان الحرب ؟ وهل كان أولى بأهلك ان يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلب وهم بين هؤلاء الأسرى؟

انهم لو كانوا بين هؤلاء الأسرى لما ترددت فى افتدائهم من أجلك ولكنهم فى غير حاجة الى ولا اليك . اننى قد رأيتك وبهرنى حسنك ، ثم رأيت حزنك فآلمنى حزنك . ثم تكشفت لى كبرياؤك فقهرت كبريائى ، ولو شئت أن تبعدى الى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة ـ وإن أحببت المقام هنا ـ كنت عندى ولا أقول لى حتى تقولى ذلك أنت »

فنظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينها ذلك البريق القاسى الذى كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه ثم اغضت بعد أن طبعت فى خيالها صورته

ولم يذهب سلاميش ذلك المساء الى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذى قدم اليها فى ذلك اليوم ولم تنل منه قبل ذلك شيئا

وفى ذلك المساء وفد الى سلاميش بريد السلطان يحمل اليه أمر الارتحال الى دمشق بمن معه من الجند . ويأمره فيه بتقسيم الغنائم بين أمرائه وجنوده وبتوزيع الاسلاب من أموال وسبايا . ووهبه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعترافا له بما كان من نضاله

وبكر سلاميش فذهب فى الفجر إلى خيمة الفتاة وهو خفيف الخطوة متهلل النفس إذ كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه ، فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طعما ؛ فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت فى مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ، ثم جلس قريبا منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبريائه ، بل كان فى حديثه خفيض الصوت مهتز الأنفاس .

قال لها : « قد أمرنى السلطان أن أتحرك اليوم إلى دمشق بعد أن انتهى الأمر هنا »

فلم تجبه بل نظرت نحوه ، كأنما تسأله عن مصير وطنها ، ومن فيه من رهطها ، وكأنه أحس بما فى نفسها من التساؤل فقال : « وقد أراد السلطان العظيم حفظه الله أن يجعل لى حظا من هذه المدينة » فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها : « إذن فالمدينة فى يديك » فقال لها : بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيبى من الغنيمة من فى المدينة من الأسرى تاركا للجند أموالها وتحفها »

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة « وما ذا تفعل بهم ؟ »

فتبسم سلاميش نحوها وقال « هم لك »

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح « هل تفعل ؟ »

فقام ومد يديه نحوها وقال « لقد أكرمنى السلطان العظيم بنصيبه ، وسيكون أقر عينا إذا علم أين ذهبت به »

فمدت يديها وامسكت بيديه الممدودتين وقالت « ما اسمك ؟ »

قال باسما « سلاميش » فنظرت إلى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض فقال « وإننى أود أن أعرف ما تحبين فأنفذه لك فان دارك هنا لم يمسها أحد من الجنود . لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها إلى مقره ، ولك أن ترجعى إلى دارك إذا شئت عزيزة فى ظل السلطان العظيم » .

فنظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت فى حياء « وأنت ؟ »

فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

« سأذهب إلى دمشق كما أمر مولاى »

فسكتت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت :

« سلاميش ، وأنا كذلك إلى دمشق أسير »

ثم ارتمت بين ذراعيه .

محمد فريد أبو حديد